

فجهد النبي ﷺ والمسلمون جهداً شديداً في هذه الأعوام الثلاثة واشتد عليهم البلاء، وفي الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر، وذكر السهيلي أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتي أحد أصحاب رسول الله ﷺ إلى السوق ليشتري شيئاً من الطعام يقاته لاهله، فيقوم أبولهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً، حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يده شيء يعطهم به.

فلما كان على رأس ثلاث سنين من بدء هذا الحصار، تلاوم قوم من بني قصي، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه، وأرسل الله على صحيفتهم التي كتب فيها نص المعاهدة الأرضة، فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التي فيها ذكر الله عزوجل.

وقد أخبر بذلك رسول الله ﷺ عمه أبا طالب، فقال له أبوطالب: أربك أخبرك بذلك؟ قال: نعم، فمضى في عصابة من قومه إلى قريش، فطلب منهم أن يؤتوه بالصحيفة موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاجوا بها وهي مطوية، فقال أبوطالب: إن ابن أخي قد أخبرني، ولم يكذبني قط، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التي كتبتم الأرضة فأتت على كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأنيقوا وأرجعوا عن سوء رأيكم، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون، فقالوا: قد رضينا بالذي تقول. ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ فقالوا: هذا سحر ابن أخيك!.. وزادهم ذلك بغياً وعدواناً.

ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش، مشوا في نقض الصحيفة وإنهاء هذا الحصار وهم: هشام بن عمرو بن الحارث، وزهير بن أمية، والمطمع ابن عدي، وأبولبختري بن هشام، وزمعة بن الأسود.

وكان أول من سعى إلى نقضها بصريح الدعوة زهير بن أمية، أقبل على الناس عند الكعبة فقال: يا أهل مكة، أتناكل الطعام، ونلبس الثياب وبنو هاشم